النزاع بين الروحانيين والماديين

للدكتور فضل أبو بكر

أثارت ظاهرات الطبيعة فضول الإنسان الأول وراعته عواديها فأطلق لخياله العنان ومن بعد ثم شرع يشحذ من قريحته البدائية وتفكيره الساذج يحاول تعليلا لتلك الظاهرات والوصول إلى حل بعض طلاسم الوجود .

ينشد حلا يروى عطاش نفسه الظمأى ووجدانه الحائر ، ويرضى في الوقت نفسه ولحد ما كبرياءه كحيوان بلغ درجة من التطور العقلي والجسمي ما جعله يلقب بسيد المخلوقات ، وهو لقب ناله بجدارة واستحقاق .

غير أن سيد المخلوقات قد عاش في ظلمات من الجهل ، وأسدلت بينه وبين نور المعرفة حجب كثيفة حالكة ، ولم يبد أمام ناظره بصيص من نور أو وامض من برق إلا متأخراً جداً بالنسبة لبدأ خلقه كانسان — ولا أقول ككائن حي — كما يحدد ذلك على وجه التقريب علم « الأنثروبولوجيا » وكما تدعم ذلك متحجرات « الجيولوجيا » وحفائر « الأركيولوجيا »

كان لعهد ليس بالبعيد يعتقد في سطحية الأرض ويظنها بساطاً ممتداً إلى ما لا نهاية له بساطاً لاحراك فيه ؛ وكان جهله بالسماء وشمسها وكوكبها أشد من جهله بالأرض التي يعيش فوق أديمها وذلك إلى أوائل القرن السابع عشر ، حتى جاء « جاليلي » « وتيوتن » و« لا بلاس » فيما بين منتصف القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، فأثبتوا كروية الأرض ودورانها حول الشمس وقانون الجاذبية ، ونهضوا بعلم الفلك ووضعوا له أسساً وقواعد علمية متينة ، كما أسس العالم الفرنسي « لافوازييه » قواعد الكيمياء بعد ما فند آراء القدماء فيما يتعلق بالاحتراق «والتأكسد» خاصة . كما ظهر غيرهم من العلماء ، وكان عصرهم هو عصر النهضة العلمية خطا فيه العلم خطوات المارد في جميع فروعه .

لقي الكثير منهم تمنتاً واضطهاداً بل وتعذيباً من رجال الدين ورؤساء الكنائس ، وذلك لجمود أهله في ذلك الحين وسطحية تفكيرهم وضيق أفقهم ؛ كذلك كان العلم والمعرفة في ذلك الحين موقوفين على أهل الدين فاشتد الخلاف ودب الحقد في نفس العلماء كما خرج بعضهم على الكنيسة والدين ، وأكبر مثل لأولئك الخوارج المرتدين كان العالم الرياضي الفلكي « لابلاس » الذي تشرف بالمثول بين يدي جلالة الأمبراطور نابليون الأول لأبحاثه القيمة في علم الفلك ومؤلفه « الميكانيكا السماوية La Mécanique Celeste فهنأه الأمبراطور على اجتهاده وقال له مندهشاً مستفسراً « أراك لم تذكر شيئاً عن الخالق ولم تمجده في جليل صنعه !! » فأجابه لابلاس على الفور « ما كنت يا مولاي في حاجة إلى مثل هذا الفرض » Sire, je n, ai jamais eu bésoin de cetfe hypothese

من هنا يتبين لنا الفرق الشاسع بين المسيحية في ذلك الوقت وبين الإسلام فيما يتعلق بتسامحه وسعة صدره إزاء العلماء والفلاسفة الذين لم يلاقوا من رجال الدين تمنتاً ولا اضطهاداً إلا القليل بل كانوا على العكس محل احترام وإعجاب الكثيرين كما رعاهم الملوك والأمراء ورغماً عما أدعاه كذباً وتمويهاً للحق بعض المؤرخين الغربيين بأن العرب عند ما دخلوا الاسكندرية في القرن السابع حرقوا كنوز العلم والفلسفة والفنون من مخلفات الأغريق التي كانت تعج بها مكتبتها الفريدة وتكتظ بها في ذلك الحين ؛ غير أن بعض المنصفين من مؤرخيهم نفوا تلك التهمة وبرأوا العرب من جناية لم يرتكبوها ، وأثبتوا بأن الرومان وخدهم لما دخلوا الإسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد هم الذين بددوا تلك الكنوز وعبثوا بنفائسها .

ذكرنا فيما تقدم بأن عهد النهضة العلمية كان حقاً العصر الذهبي خطت فيه العلوم والمعارف الإنسانية خطوات واسعة كما تحرر فيه العقل البشري — لحد كبير — من ربقة القيود التي كبلته حيناً من الدهر .

تقدم علم الكيمياء والطبيعة والرياضيات والفلك منذ ذلك الحين ، ومازالت في تقدم مطرد — تقدماً غير وجه الأرض وما عليها وكانت نتيجة ذلك حضارتنا الراهنة التي هي وليدة تطبيق تلك العلوم .

وقد نهض الإنسان بعلمي الطبيعة والكيمياء إلى درجة مكنته من تحطيم الذرة واستخدام القوة الهائلة الناتجة عن ذلك .

قوة — كما يقول علماؤها — إذا سخرت فى الصناعة أغنته عن الفحم والبترول وغير ذلك من المواد الخام اللازمة لتوليد القوة وأعطته من الإنتاج أضعافاً مضاعفة لما تأتى به تلك المواد، كما أنها إذا استخدمت أداة للحرب والشر عصفت بالعالم ومن عليه وما عليه وجعلته قاعاً صفصفاً وعليفاً مأكولا .

غير أن علم الحياة لم يخط كما خطت تلك العلوم وذلك لتعقيده ووعورة مسلكه شأن كل ما يتعلق بالحياة، فهو لغز الوجود وسر الخالق! فالإنسان المكتشف المخترع لآلات وأجهزة بلغت من الدقة والإتقان شأواً بعيداً، هذا الإنسان عينه تراه فى الوقت نفسه عاجزاً تمام العجز عن خلق أدنى المخلوقات الحية!! خلق كائن مركب من خلية واحدة مثل «الأميبا» أو «البكتريا» مع أنه يعرف «تحليلا» وبدقة تامة المواد والعناصر التى تتركب منها ولكنه يعجز «تمثيلا» عن أن يهبها الحياة!!

فلغز الحياة وجهل الإنسان بنفسه ككائن حى حير الفلاسفة من عهد سقراط إلى يومنا هذا، وهو ما حدا بسقراط أن يكثر من القول «اعرف نفسك» وهو بيت القصيدة من فلسفته والمحور الذى تدور حوله رحاها. وهو هو الذى أعيا الخيام وجعله يهرب من ميدان الجدل، ويحتمى بالطاس والكاس يغرق فيهما همومه وحيرته، ويستوحيهما لمعرفة السر الرهيب! وهو ما أقلق راحة المعرى حيرة وشكا كان إزاءهما فى كر وفر؛ فانظر إليه حين يقول :

والذى حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد

ومنها أيضاً :

حار أمر الإله واختلف النا ... س فداع إلى ضلال وهاد

يقول هذا وربما يطمئن إلى ما يقول حيناً فيعاوده الشك وتنتابه الحيرة أحياناً فيناقض نفسه بنفسه كما يذكر ذلك فى شعره وتأملاته، ومن هنا كانت بليته وعذاب نفسه .

وقد روى عنه أنه كان «نباتياً» يعف عن اللحوم ويرى فى أكلها قسوة من الإنسان على الحيوان؛ وربما كان سبب ذلك عقدة نفسية ومركب نقص مصدره إكبار الحياة فى شخص الأحياء!! الحياة التى هزمته لغزها وأعياه سرها: فالإنسان يكبر — من حيث لا يشعر ولا يريد — ما يدق عنه وما يجهله والمجهول ما هو إلا خصم عنيد تغلب عليك وهزمك تكبره وإن كنت فى الوقت نفسه تشعر نحوه بشىء من العداء!!

وقف العلم وأسرار الطبيعة فى حيرة من أمرها بسبب الجدل الدائم المحتدم بين الماديين المسمين أنفسهم بالواقعيين، وبين الروحانيين، وذلك من عهد سقراط إلى يومنا هذا .

وقد كان أكبر حجة للروحانيين المثاليين عند الأغريق هو «أفلاطون» بلا شك. وكان يمجد الروح والعقل بقدر ما كان يحتقر المادة ويحط من قيمتها. كان يؤمن بخلود الروح ويعتقد بأن الجسد ما هو إلا سجن وقيود وأصفاد تكبلها. والروح — كما يعتقدها — أزلية لا بداية لها ولا نهاية، وقد عاشت قبل أن تحل بالجسم كما ستبقى وتخلد بعد فنائه، وأن جوهر الأشياء وحقيقتها لا يعرف عن طريق الحس والمشاهدة، وإنما الوصول إلى الحقيقة يأتى عن طريق هبة علوية روحانية يمكن تنميتها وترويضها عن طريق الجدل المنطقى والتأمل العميق، وهو ما يميز الفيلسوف — الذى هو لا غيره — القادر المقتدر على حكم الدولة حسب قوانين مثالية توحى بها العدالة ويعلمها المنطق السليم .

يشارك أفلاطون فى آرائه تلميذه وخليفته من بعده «أرسطو» الذى نجح فى تدعيم آراء أستاذه بحجج قوية عن طريق المشاهدة والتجارب، ومن هنا كان أقل مثالية من أفلاطون وأقرب منه إلى الواقعية والمادية، كما امتاز أرسطو بآرائه فى مسألة التطور التى أولاها الكبير من عنايته. أما عن كبار الماديين عند الأغريق فنذكر أهمهم وكبيرهم «ديموقريط» الذى كان يعتقد بأن المادة تتكون من ذرات متناهية فى الصغر وهى فى حركة دائمة سرمدية، وأن تلك الذرات غير قابلة للتجزئة أو التحطيم، وكان يعتقد فى مادية الروح وتركيبها من ذرات مشابهة لذرات المادة، كما أن حقيقة الأشياء لا تعرف إلا عن طريق الحس والمشاهدة .

ولما كان يعتقد فى مادية الروح فقد نفى عنها الخلود وهاجم آراء أفلاطون مهاجمة قوية فيما يتعلق بأزلية الروح .

ظلت الحرب سجالاً بين الفريقين إلى أن ظهرت الديانة العبرية بأحبارها، ومن بعد ذلك المسيحية بقسيسها، وشن رجال الدين من الطائفتين حرباً ضد الماديين، يستنكرون فلسفتهم

ويحرمون تعاليمهم ، فأفل نجم الماديين إلى منتصف القرن السابع عشر حيث بدأت النهضة العلمية فعادت المادية إلى الميدان من جديد

وأهم الفلاسفة الماديين فى ذلك العهد هو بلا شك «اسبينوزا» الذى كان من أصل يهودى برتغالى ، ولجأت عائلته إلى هولندا حيث ولد وعاش فيها .

تأثر « اسبينوزا » لحد كبير بفلسفة « ديكادرت » وألف كتاباً شرح فيه آراءه فى الفلسفة « والتافزيقيا » وقد ثار عليه رهبان اليهود وطردوه من حظيرة دينهم على أثر مؤلفه « الدين والسياسة » .

وفلسفة « اسبينوزا » المادية فيها كثير من الغموض ، بل والتناقض فى بعض الأحيان وهاك ملخصها :

المادة — فى اعتقاده — شىء قائم بنفسه له خصائص ومميزات بواسطتها نصل إلى معرفة المادة . أما المادة ككائن — حى أو غير حى — فهذا ما نجهله وهو سر المادة نفسها ، ويقصد بذلك المادة الكبرى أى الإله .

الإله — هو المادة نفسها والكائن اللانهائى ، ولكنه ليس بخالق الكون ، وما نسميه بالمخلوقات ما هى فى الواقع إلا أنواع مختلفة ومحدودة لمادة لا حد لها ولا نهاية هى مادة الله .

أما الروح فهى فى نظره جزء من الجسم وفى وحدة معه ، وهى الجزء العاقل الحساس ، ورغماً عن هذه الوحدة فالروح لا تؤثر على الجسم تأثيراً مباشراً كما أن الجسم لا يكون له مثل هذا التأثير المباشر على الروح ، وإنما هناك تحدث تغييرات وانفعالات فى الجسم يقابلها ما يشابه ذلك فى الروح فى نظام وتناسق تام .

ومن أكبر الروحانيين المثاليين فى منتصف القرن التاسع عشر ، نذكر الفيلسوف « أوجست كت » مؤسس الفلسفة الإيجابية « Positivisme » وهى خليط من الدين والفلسفة والسياسة والاجتماع .

يرى « كت » أن الثقافة الفكرية يجب أن تكون مؤسسة على دعائم قوية من الدين والمتافزيقيا والفلسفة الإيجابية ، كما أنه يرى من الأجدى لعلماء الطبيعة أن يكتفوا فقط بوضع قوانين لعلومها ويصفوا ما يشاهدونه من ظاهراتها وما بين ذلك من تشابه وتناقر بدلا من التعمق فى معرفة الأسباب والقوى الخفية المؤدية لذلك والتى تدق من إدراكهم فى معظم الأحيان ؛ لأن مثل هذا العمق فضلا عن عقمه — يوقع فى الحيرة والشك — وهما يفضيان إلى المادية والسلبية .

والخلاصة كما يقول كت هى أن العقل البشرى مهما سما واتسعت مداركه لا يمكنه أن يصل إلى معرفة الكثير من الأسرار والقوى الخفية فى هذا الكون ؛ ولا يقصد بذلك أن هذا العجز يجب أن يشل من تفكيره ويوقعه فى اليأس والاستسلام بل على الإنسان أن يكثر من التأمل ويجد فى التفكير وألا يكون أخفاقه — كما هو الحال مع بعض الفلاسفة والعلماء — سبباً لتبرمه بالخالق ونكرانه له . ولنتأمل فى قول الخالق نفسه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وكما يقول الفيلسوف الإنجليزى « هربرت اسبنسر » : « من درس الطبيعة دراسة مستعجلة سطحية أغوته وقادته إلى الشيطان ، ومن درسها بتعمق وروية سمت به وأوصلته إلى الخالق » .

فضل أبو بكر

(باريس) بعثة فاروق الأول الودادية بفرنسا

مجلس مديرية الفيوم

(إدارة الهندسة القروية)

يعلن عن حاجته إلى مساعدى مهندسين من الحاصلين على دبلوم مدرسة الفنون والصناعات الملكية (قسم العمارة أو المدنى) أو ما يعادلها للتعيين فى وظائف من الدرجة السابعة .

فعلى من يرغب الالتحاق بإحدى هذه الوظائف أن يقدم طلباً على استمارة رقم ١٦٧ ع . ح يرسم حضرة صاحب العزة رئيس مجلس مديرية الفيوم — الإدارة الهندسية القروية — وتحدد يوم ١٥ يولية سنة ١٩٤٨ آخر ميعاد لقبول الطلبات ..

٩٦٣٩